سعاد الصباح : شاعرة شتائية فى الحب والغضب

مروة، إسماعيل إسماعيل .

سعاد الصباح شاعرة شتائية فى الحب والغضب / تأليف إسماعيل إسماعيل مروة . - ط١ . - بيروت: منشورات النور ، ٢٠٠٠ .

عرض

د. أنس عطية الفقي

كلية اللغات والترجمة

جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا

يتناول هذا الكتاب شعر سعاد الصباح بالنقد والتحليل مركزا على القضايا الشعرية أو المضامين حسب منهج مؤلفه الأستاذ إسماعيل مروة الذي صرح بذلك في المقدمة، كما أضاف أنه اعتمد المنهج الوصفي التحليلي والمنهج التكاملي في النقد متأثرا بأستاذه الدكتور نعيم اليافي، مراعيا وضع النص في سياقه التاريخي والاجتماعي ، محاولا الربط بين النقد القديم والقراءة التذوقية مع الإفادة من الدراسات الحديثة (المفهومة) على حد قوله.

مهّد الكاتب لدراسته بفصل قصير عنوانه : فى القضايا الشعرية

حدد فيه مادة دراسته، وهي عشر مجموعات شعرية لسعاد الصباح من أصل ثلاث عشرة مجموعة، فقدت ثلاث مجموعات، وهي : (ومضات باكرة) ١٩٦١م، و (لحظات من عمري) ١٩٦١م، و (من عمري) ١٩٦٤م.

أما المجموعات العشر التي تقوم عليها الدراسة فهي :

١ - أمنية ١٩٧١.

٢ - إليك يا ولدي ١٩٨٢.

٣ - فتافيت امرأة ١٩٨٦.

٤ - في البدء كانت الأنثى ١٩٨٨.

٥ - حوار الورد والبنادق ١٩٨٩.

٦ - قصائد حب ١٩٩٤ (ط٣) .

٧ - آخر السيوف ١٩٩٧ (ط٤) .

٨ - برقيات عاجلة إلى وطني (ط٤) ١٩٩٤.

٩ - امرأة بلا سواحل ١٩٩٤.

١٠ - خذني إلى حدود الشمس ١٩٩٧.

وأضاف المؤلف إلى هذه المجموعات بعض المقالات النثرية المنسوبة إليها، والتي تحمل عنوان : «هل تسمحون لي أن أحب وطني؟ ١٩٩٢، وكذلك كتابها في زوجها عبد الله المبارك الذي يحمل عنوان «صقر الخليج»١٩٩٥ .

ثم قسّم المؤلف بعد ذلك القضايا الشعرية أو الموضوعات الكبرى - إن صح التعبير - في شعر سعاد الصباح إلى أربعة أقسام :

الأول : قضايا المرأة .

والثاني : شعر الحب والوجدان .

والثالث : الشعر السياسي (الوطني، والقومي) .

والرابع : شعر الرثاء أو بكاء الأحبة.

وقد جاءت فصول الكتاب بعد ذلك الفصل التمهيدى متوافقة مع التقسيم السابق. واختار مؤلف الكتاب عناوين شعرية تعبر عن المضامين المندرجة تحتها، ولعل ذلك من تأثير ممارساته الأدبية العديدة .

الفصل الأول : «نشيج امرأة عربية»

وواضح من العنوان أنه يتناول قضايا المرأة مع تركيز على شخصية الرجل في شعر المرأة عند سعاد الصباح . استعرض المؤلف في هذا الفصل أهمية هذا النوع من الشعر وشعر قضايا المرأة، ووضح الفرق بينه وبين شعر الغزل أو الشعر الوجداني الخاص بالعلاقة بين الرجل والمرأة . فشعر قضايا المرأة هو الذي يختص بمكانتها الاجتماعية، وحقوقها الإنسانية، ومشاركتها في جوانب الحياة العامة، ونظرة المجتمع إليها . وقد لاحظ المؤلف ندرة هذا النوع من الشعر في مجتمعاتنا الشرقية؛ حيث يعد الدخول فيها نوعا من المغامرة، فلا نكاد نرى غير نزار قباني متناولا مثل هذه القضايا . وقد جاءت الشاعرة سعاد الصباح من عالم المرأة لتشارك في هذا المضمار مدافعة عن مثيلاتها ، محاولة عرض جوانب حيوية في هذا المجال . ويصفها المؤلف بأنها مقاتلة وصاحبة رسالة شعرية وفكرية، لم تركن إلى ما هي فيه ولم تقف عند ذاتها ، آمنت بأن الشعر تغيير فدافعت عن المرأة وحقوقها.

وقد بدأ شعر قضايا المرأة مع سعاد الصباح مبكرا في مجموعاتها الأولى، وقد جاءت فيه قصائد مباشرة لم يشاركها فيه موضوع آخر، ويبلغ عدد هذه النصوص خمسة وعشرين نصاً موزعة على مجموعاتها الشعرية ابتداءً من (أمنية)، ووصولا إلى (خذني إلى حدود الشمس) .

ولم تقتصر نداءاتها الشعرية على حرية المرأة الشعاراتية الخالية من الحالات الإنسانية المرة، بل كانت نفثات صادقة عبرت من خلالها عن هموم المرأة الشرقية.

ويرى المؤلف أن شعر قضايا المرأة عند سعاد الصباح قد مر بمرحلتين :

المرحلة الأولى : قد اتسم فيها هذا الشعر بالروح الانفعالية والمباشرة والنبرة الخطابية . ومن قصائدها الانفعالية المباشرة المعبرة عن هذه القضايا، والتي تناولها الكاتب عرضا وتحليلا قصيدة : «حق الحياة» التي تقول فيها:

ويل النساء من الرجال إذا استبدوا بالنساء
يبغونهن أداة تسلية ومسألة اشتهاء
ومراوحا في صيفهم ومدافئا عبر الشتاء
وسوائما تلد البنين ليشبعوا حب البناء

ودمىً تحركها أنانية الرجال كما تشاء

وتذل للرجل الإله كأنه رب السماء

ما دام يمنحها المؤونة والقلادة والكساء

لا لن نذل ولن نهون ولن نفرط في الإباء

لقد انتهى عصر الحريم وجاء عصر الكبرياء

وحلالنا حق الحياة فكلنا فيه سواء

أما المرحلة الثانية من شعر سعاد الصباح في قضايا المرأة فقد تحول الخطاب الشعري من المباشرة والوعظية والخطابية التي ظهرت في القصيدة السابقة إلى خطاب غير مباشر شعري مفتوح لدلالات وتفسيرات في ديوان " فتافيت امرأة "، وبعد أن كانت عناوين قصائدها من أمثال : «حق الحياة - غاسلة الثياب» صارت تحمل دلالاتا وآفاقا شعرية مفتوحة مثل : "فيتو على نون النسوة"، وهي القصيدة التي تناولها المؤلف عرضا وتحليلا لتمثل هذه المرحلة . ومن مقاطعها:

يقولون :

إن الكلام امتياز الرجال

فلا تنطقي

وإن التغزل فنّ الرجال

فلا تعشقي

وإن الكتابة بحر عميق

فلا تغرقي

وها أنذا قد عشقت كثيرا

وها أنذا قد سبحت كثيرا

وقاومت كل البحار ولم أغرق

وقد لاحظ المؤلف أنه كان من الطبيعي أن تظهر نظرة سعاد الصباح للرجل من خلال شعر المرأة، حيث هو المقابل الطبيعي في هذا المجال . وقد تميزت شخصية الرجل عندها بالتعددية؛ فقد يكون مثل المرأة ضحية مسكينا، وقد يكون مسلوب الإرادة يحتاج إلى ثورة في شخصيته، وقد يكون متسلطا، وهذه الشخصية هي الأكثر انتشارا في مجتمعنا الشرقي.

وهذه التعددية في نظرة الشاعرة لشخصية الرجل إنما تؤكد سعة التجربة والحرص على المهمة التنويرية للرسالة الشعرية .

الفصل الثاني : «بين الأنا والأنا»

وقد خصّصه الكاتب للشعر الوجداني العاطفي محاولا فيه اكتشاف رؤية سعاد الصباح في الحب والجمال محللا فيه الجوانب الرومانسية والواقعية والحكمة العقلية التي قد تكمن وراء ذلك، والأوجه التي مثلت ثورة الرفض لبعض السلبيات الاجتماعية الخاصة بالنظرة الدونية إلى المرأة في ظل سلطة المجتمع الذكوري .

وللشاعرة سعاد الصباح مقدمة نثرية صدّرت بها واحدا من أهم دواوينها " قصائد حب ". حاولت فيها أن تغير مبادئ الحب المعروفة عند العرب، فبعد أن كانت المرأة تنتظر مبادرة الرجل، رأت الشاعرة أن تبادر المرأة هي الأخرى لتمارس حريتها في التعبير عن مشاعرها .

تقول سعاد الصباح : «إن لعبة الحب هي لعبة يقوم بها اثنان : رجل وامرأة، فلماذا يلعب الرجل وحده بأوراق الحب، دون أن يعطي الفرصة للمرأة لتشارك في اللعبة ، وتجرب حظها؟ لماذا يحق للرجل حين تجتاحه عاصفة الحب أن يقول للمرأة أحبك ، ولا يحق لها ذلك إذا بللتها أمطار الحب؟ لقد تغزل الرجل بالمرأة منذ بدء التاريخ. ولم يترك لها هامشا صغيرا من الحرية يسمح لها بأن تتغزل به".

«المجتمع العربي رغم كل مظاهر الحداثة والانفتاح الحضاري على العالم لا يزال يضع «الفيتو» على المرأة العاشقة، ويعتبرها امرأة ناشزاً يشكل كلامها عن الحب خدشا للحياء العام، وخطرا على الأمن القومى .. » .

«هذه قصائد حب أحاول بها أن أقيم «ديمقراطية عاطفية » يتساوى فيها الرجل والمرأة في حرية البوح ، بحيث لا يحتكر الرجل وحده بلاغة الخطاب .. ولا تبقى المرأة مجرد مستمعة لإسطوانة الحب التي يعزفها الرجل ليلا ونهارا .

إن لدى المرأة كلاما عاطفيا مخزونا منذ آلاف السنين تريد أن تقوله وما سمحوا لها أن تفجر ينابيعها الداخلية ، وتطلق آلاف العصافير المحبوسة في صدورها. اسمحوا لها ، ولو لمرة واحدة في التاريخ أن تعرف معنى المساواة في الحب وتستنشق رائحة الحرية.

كانت هذه هي المقدمة النثرية التي عبرت فيها الشاعرة عن الأسباب التي دفعتها لكتابة قصائد الحب وهي حاجة المرأة للتعبير عن مكنون مشاعرها دون رقابة، كما أنها تريد أن تطلق صوت المرأة العربية الذي استمر محبوسا قرونا عديدة .

ومجموعة «قصائد حب» شكلت نقلة نوعية عند الشاعرة من خلال تفحصها للشخصية صاحبة القرار، التي من حقها أن تكون صاحبة رؤية خاصة، وأن تعبر عن ذاتها؛ لتصبح الحياة أكثر متعة، وليصبح الحب أقدر على أن يعيش بمزيد من الشفافية والاحترام والقدسية، وبخاصة عندما نسمع تراتيل العشق على شفاه امرأة :

يا أيها القديس الذي علمني

أبجدية الحب

من الألف إلى الياء

ورسمنى كقوس قزح

بين الأرض والسماء

وعلمنى لغة الشجر

ولغة المطر

ولغة البحر الزرقاء

أحبك

أحبك

أحبك

ويلجأ الكاتب إلى عرض قصائد كاملة وتحليلها فكريا وفنيا لتبين المواقف المتعددة لدى الشاعرة، وأكثر ما استند إليه الكاتب كان من ديواني : " فتافيت امرأة "، "وامرأة بلا سواحل "؛ حيث استعرض من الديوان الأول قصيدة : " أوراق من مفكرة امرأة خليجية "، ومن الثاني قصيدة : «اعترافات امرأة شتائية»، وهذه الأخيرة هي التي ألهمت المؤلف عنوان كتابه: "سعاد الصباح شاعرة شتائية في الحب والغضب".

ويحمل المقطع الأول من قصيدة «أعترافات شتائية» كثيرا من التعبيرات الجرئية التي تبين رؤية سعاد الصباح في الحب العاطفي بين الرجل والمرأة، وحرية المرأة في التعبير عن هذه العواطف. تقول فيه:

ما لجنوني أبدا حدود

ولا لعقلي أبدا حدود

ولا حماقاتي على كثرتها

تحدها حدود

يا رجلا يغضبه تطرفي

من ذا الذي يغضب من تطرف الورود ؟

هذا أنا .. من يوم أن خلقت

أنوثتي ساحقة

عواطفي حارقة

شواطئ تضربها البروق والرعود

هذا أنا من يوم أن عشقت

أشرعتى مفتوحة

ضفائري مفتوحة

أوردتي مفتوحة

وأنهري تهزأ بالسدود

فلا تقف مرتبكا وذاهلا .

أمام إعصاري ، فإني امرأة

ليس لما تريده حدود

الفصل الثالث : «فواصل من تراب الوطن»

وقد تضمن هذا الفصل الرؤية السياسية عند الشاعرة من خلال البعدين:

القومي والوطني اللذين استغرقا عددا غير قليل من قصائدها . وتمثل البعد القومي في مواقفها الداعمة للقومية العربية وميولها تجاه مواقف الزعيم جمال عبد الناصر من خلال قصيدتيها : من امرأة ناصرية - وعندما رحل ناصر . وكذلك خلال قصائدها في بيروت، والشهيد، والصيحة عربية، وآمالها في الوحدة العربية الكبرى.

تقول في قصيدة «أمنية» عند رحيل الزعيم جمال عبد الناصر :

مصر يا أمي ويا همي ويا خير المهاد

لا تقولي أسلم الناصر للموت القياد

بعد أن كان منى العرب وآمال البلاد

لا تقولي تعب الساهد من طول السهاد

ثم تختم القصيدة بقولها :

ارو عنه أنه قرّب أيام الحصاد

لقيام الوحدة الكبرى وتحقيق المراد

أما البعد الوطني فتمثل في اعتزالها بموطنها "الكويت" ، والجزيرة العربية، والخليج العربي. وتجلى ذلك في كثير من قصائدها التي استعرضها المؤلف، من ذلك قصيدة: « إنني بنت الكويت»، وبطاقات من حبيبتي الكويت ، و«من قتل الكويت»، و«نقوش على عباءة الكويت».

ولأن الموهبة الشعرية تتدفق عند النوازل الكبرى تدفقت موهبة الشاعرة نحو وطنها الحبيب

الكويت حينما شهد أكبر مأساة له في العصر الحديث وتعرض للغزو العراقي وكاد أن يمحى من الخارطة . فالشاعرة بدأت رحلة نضال من أجل بلدها الصغير الجميل - على حد تعبيرها - وبقيت تقاتل بجهدها وقلمها حتى بزغ فجر الحرية . وعلى الرغم من أن المأساة تبقى مهما كانت النتائج، إلا أنها خرجت لنا بشاعرة وطنية من الطراز النادر، وبمجموعة من القصائد المطرزة بحب الوطن، وألوان الفجيعة والحزن.

وأغلب قصائدها في حب الكويت مؤرخة باليوم والشهر والسنة، وهذا التاريخ له دلالة كبيرة في سير عملية النقد، فالشاعرة كانت مواكبة للحدث وعلى مستوى الحدث لحظة بلحظة تقول مخاطبة المعتدي:

أيها الجار الذي هدّم داري

وأنا عمرت في قلبي له ركنا ودارا

إنني مكسورة مقهورة ذاهلة

تقذف الخيبة أحلامي يمينا ويسارا

يا الذي أهديته الماء وأهداني الصحارى

يا الذي أهديته الأفق وأهداني الحصارا

يا الذي أهديته نصرا من الله وأهداني احتلالا وانكسارا

يا الذي أحرق أسراب العصافير وما قدّم للريش اعتذارا

لا تؤاخذني إذا جن جنوني

أنت لم تترك لإنسان خيارا

وبعد أن عادت الشاعرة إلى وطنها الحبيب محملة بمأساتها الوطنية، وبكارثتها في أحلامها الوحدوية والقومية تقول :

يا أمّنا الكويت

ضمينا إلى صدرك بعد غربة

فنحن من دونك يا حبيبتي

جيش من الأيتام

لا نعرف الحب ولا الدفء والسلام

ونحن من دونك يا حبيبتي

مسافرون ضيعوا خارطة الشهور والأيام

ونحن من دونك يا حبيبتي

حمائم قد نسيت مبادئ الكلام

وقد ركز المؤلف على المؤثرات التي شكلت الرؤية السياسية لدى سعاد الصباح كالوسط البيئي والعائلى، والاستعداد الشخصي؛ وذلك لتوضيح الأبعاد الاجتماعية والنفسية التي تكمن في ثنايا النص الأدبي .

الفصل الرابع : «معزوفة الفقد الحزينة»

يعرض من خلاله تحليله لشعر الرثاء عند سعاد الصباح بخاصة رثاء زوجها عبد الله المبارك الذي كان له تأثير كبير وعميق في حياة الشاعرة، وكذلك رثاء ولدها وفلذة كبدها «مبارك» الذي كان سببا مباشرا في توقفها عن الإبداع الشعري لمدة عامين. وقسم هذا الفصل تقسيمات تنم عن فحواه: انشطار الذات - آخر السيوف والخروج من المأزق - انكفاء على الذات - الرسالة والمتلقى .

ويعبر المؤلف بانشطار الذات عن مأساتها بفقدان زوجها عبد الله المبارك؛ حيثُ نلمح إحساسا عميقا بحب كبير تؤكده الشاعرة في قولها:

أنت أدنى لي بعهد الحب من ذي رحم

فتقبل بعض همي وتحمّل لممي

أنت أمي وأبي أنت حبيبي توأمي

أنت يا نبضة قلبي أنت يا مجرى دمي

وتقول في موضع آخر ممثلة إياه بالسيف :

ها أنت ترجع مثل سيف متعب

لتنام في قلب الكويت أخيرا

يا أيها النسر المضرّج بالأسى

كم كنت في الزمن الرديء صبورا

وهنا تستغل الشاعرة موعد وفاة زوجها الذي تزامن مع تحرير الكويت ، مما سمح له بالعودة، وتنبش الذاكرة القريبة لتتحدث عن فارسها الذي أفنى حياته في خدمة وطنه :

كسرتك أبناء الكويت ..

ما كان يمكن أن تعيش ..

صعب على الأحرار

قدر الكبير بأن يظل كبيرا

وتحت عنوان «الانكفاء على الذات» يستعرض المؤلف قصائد الشاعرة في ولدها الذي افتقدته في زهرة العمر ، وكان سببا في توقفها عن الإبداع الشعرى لمدة عامين كاملين عادت بعدهما تنفث كرباتها ، وتطلق قلمها . ومما قالته في رثاء ولدها:

أيا لوعة قلب الأم إن ماتت أمانيها

فلا الشكوى تؤانسها ولا الصبر يواسيها

تولت فرحة الدنيا فعاشت في مآسيها

فيا ولدى ويا زخري من الدنيا وما فيها

أجب ، من يغلب النار التي شبت ويطفيها ؟

الفصل الخامس : هذا الفصل استعرض فيه المؤلف الخصائص العامة لشعر سعاد الصباح التي تمثلت فيما يلى :

١ - التأثير والتأثر : حيث أجرى المؤلف بعض المقارنات بين الشاعرة وغيرها ممن ارتأى في إبداعاتهم التأثير أو التأثر مع تحديد خصوصية كلا الطرفين.

٢ - المفارقة والسخرية: وهي سمة شعرية مميزه يزخر؛ بها الشعر الحديث ، وبخاصة الشعر السياسي : ولذلك بيَّن المؤلف أن الشاعرة اختارت المفارقة؛ لأنها خير وسيلة للحديث عن وسط مصطرع سياسيا واجتماعيا وفكريا .

٣ - الموازنات: حيث اعتمدت الشاعرة في كثير من قصائدها على الموازنات بين الأشياء والمواقف المتناقضة لتبرز أوجه التمايز، وقد حلل الكاتب هذه الخصيصة من خلال مجموعة من القصائد التي اشتملت على موازنات في مواقف شعرية متنوعة .

٤ - التضخيم والمبالغة : وقد أوضح المؤلف أن هذه الخصيصة قد تكون مقبولة، وقد تكون خارجة عن إطار المألوف ، كما حاول أن يميز بين مفهوم المبالغة قديما وحديثا ، وأن يعطي المبالغة أبعادها الفكرية والفنية التي تناسب العصر الحديث ، مع تطبيق ذلك على نماذج من شعر سعاد الصباح

٥ - الاحتفاء بالمكان : وقد بيَّن المؤلف أنه ليس المقصود بالمكان هنا البلد الذي تنتمي إليه

الشاعرة ؛ إنما كل مكان ربطتها به علاقة أو عاشت فيه، ، أو كانت لها فيه ذكريات ، ويرى المؤلف أن الشاعرة من شدة احتفائها بالمكان وتفصيلاته قد أضفت عليه صفة س الأنسنة س، بمعنى أنها نفثت فيه روح الإنسان حيث جعلته مشاركا محاورا ينبض بالحياة والإحساس .

٦ - الومضة الشعرية : ذكر المؤلف الومضة الشعرية بوصفها خصيصة من خصائص سعاد الصباح، لاحظ تكرار هذه السمة فى مواقفها الشعرية المتعددة حينما تختزل قصيدة طويلة في ومضة سريعة . كقولها تحدد هوية المرأة :

هوية

يعرفني الناس بك

فأنت عطري الخصوصي

يقول المؤلف معلقا: «ففي هذه الومضة اختصرت الشاعرة قائمة طويلة من الثرثرات، ووضعتك أمام الدهشة المطلقة في تكثيف العبارة ، واختزال المعاني بلوحة بسيطة محددة الأطر» .

٧ - الدرامية والبناء القصصي : لاحظ المؤلف أن شعر سعاد الصباح به نماذج من القصائد القصصية التي يتحقق فيه البناء الدرامي ، كما لاحظ أن بعض النماذج من القصائد القصيرة جدا يحتوي أيضا على البناء الدرامي .

٨ - اللغة اليومية المتداولة: وهي التي يمكن أن نطلق عليها «فصحى العامية» إن صح التعبير . وهي سمة رأى المؤلف أن لغة الشاعرة اتسمت بها في جُلّ قصائدها .

كما استخلص الأستاذ إسماعيل مروة مؤلف الكتاب مجموعة من الملاحظات حول الشاعرة ورسالتها تتلخص فيما يلي :

١ - التزام الشاعرة بقضايا أمتها العربية بما يؤكد قوة انتمائها واعتزازها بعروبتها .

٢ - اهتمامها بقضايا المرأة الاجتماعية، والفكرية ، والسياسية .

٣ - إيمانها بحتمية التكامل الاجتماعي بين الرجل والمرأة .

٤ - طموحها إلى الحرية : حرية الفرد والمجتمع، الرجل والمرأة. والحرية - كما هو معروف - قيمة عليا للعمل الفني .

٥ - تفاعلها الكامل مع وسطها الثقافي ؛ فهي لم تعش في برج عاجي بل اختلطت بالأدباء والأديبات في عصرها ، وارتبطت معهم بعلاقات مميزة ، تعطي وتأخذ، وهذا التفاعل أعطى أدبها مزيدا من الحياة الواقعية .

لقد بذل المؤلف الأستاذ إسماعيل مروة جهدا واضحا ومميزا في سبيل إنجاز هذه الدراسة التي قدمت صورة مستفيضة عن المضامين الشعرية عند سعاد الصباح، كما أنها عالجت الشكل الشعري معالجة سلسة بعيدة عن المعادلات النقدية العسيرة؛ لتؤكد بذلك على مصداقية كاتبها الذي صرح بذلك في مقدمة كتابه، ولتمثل في الوقت ذاته لبنة في صرح النقد التطبيقي لأدبنا العربي الحديث.